

رسالة

في كون القرآن العظيم أعظم معجزات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم

جمع
نزار حمادي

دار الإمام ابن عرفة
تونس



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي أَنْزَلَ القُرْآنَ شِفَاءً وَرَحْمَةً وَفُرْقَانًا، وحِكْمَةً وحُكْمًا وَبَيَانًا، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ أُرْسِلَ لِلْعَالَمِينَ حُجَّةً وَبُرْهَانًا، فَأَدَّى الرِّسَالَةَ بَلَاغًا وَتِبْيَانًا، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ٱلَّذِينَ ٱقْتَفَوْا آثَارَهُ عِلْمًا وَإِحْسَانًا، وَعُلَمَاءِ أُمَّتِهِ المُبَلِّغِينَ عَنْهُ مَعَانِيَ الوَحْيَيْنِ حَدِيثًا وَقُرْآنًا.

وَبَعْدُ، فَإِنَّ لِلْإِسْلَامِ قَوَاعِدَ وَأَرْكَانًا يَنْبَغِي تِبْيَانُهَا وَبَيَانُهَا، وَالدِّفَاعُ عَنْهَا وَرَدُّ كُلِّ شُبْهَةٍ تَرِدُ عَلَيْهَا، لَا سِيَّمَا مَا تَعَلَّق مِنْهَا بالأُصُولِ الإِيمَانِيَّةِ، فِي الإِلَهِيَّاتِ وَالنُّبُوَّاتِ وَالعَقَائِدِ السَّمْعِيَّةِ.

وَالقَصْدُ بِهَذِهِ الرِّسَالَةِ بَيَانُ قَاعِدَةٍ مِنْ تِلْكَ القَوَاعِدِ وَهِيَ أَنَّ القُرْآنَ العَظِيمَ هُوَ أَعْظَمُ مُعْجِزَاتِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِه وَتَصْدِيقِ ٱللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ، وَلَا شَكَّ فِي أَهَمِّيَةِ هَذِهِ القَاعِدَةِ وَٱنْدِرَاجِ مَا لَا يُحْصَى مِنَ الجُزْئِيَّاتِ العِلْمِيَّةِ

وَالعَمَلِيَّةِ تَحْتَهَا، فَنَقُولُ فِي بَيَانِهَا مُسْتَنِدِينَ عَلَى نُقُولٍ مُحَرَّرَةٍ مِنْ عُيُونِ كُتُبِ الأَيِمَّةِ وَبِٱللَّهِ التَّوْفِيقِ.

ٱعْلَمُوا أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا ﷺ لَهُ مُعْجِزَاتٌ كَثِيرَاتٌ خِيَارٌ وَاضِحَاتٌ، يَعْجِزُ العُقَلَاءُ عَنْ حَصْرِهَا وَالإِحَاطَةِ بِهَا، مَعَ قِصَرِ مُدَّةِ إِقَامَتِهِ ﷺ فِي الدُّنْيَا، وَذَلِكَ دَلِيلٌ قَاطِعٌ عَلَى مَزِيدِ عِنَايَةِ ٱللَّهِ بِهَذَا النَّبِيِّ الكَرِيمِ، وَبُرْهَانٌ نَاصِعٌ عَلَى غَايَةِ التَّشْرِيفِ وَالتَّكْرِيمِ.

وَمِنْ مُعْجِزَاتِهِ ﷺ **القُرْآنُ العَظِيمُ**، وَقَدْ عَرَّفَهُ الشيخ العلامة أبو عليٍّ اليوسي (ت١١٠٠هـ) بِأَنَّهُ «اللَّفْظُ المُنَزَّلُ على نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ لِلْإِعْجَازِ بِسُورَةٍ مِنْهُ، المُتَعَبَّدُ بِتِلَاوَتِهِ»[1].

(١) البدور اللوامع شرح جمع الجوامع، (ج٣/ص٨)

وَهُوَ أَفْضَلُ مُعْجِزَاتِهِ البَاهِرَةِ وَأَعْظَمُهَا، وَأَجَلُّهَا قَدْرًا وَأَفْخَمُهَا وأَدْوَمُها؛ لِبَقَائِهِ مُعْجِزَةً بَعْدَ ذَهَابِ ٱللَّهِ بِنَبِيِّهِ ﷺ عَلَى مَمَرِّ الدُّهُورِ.

أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلاَّ وَأُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ**»[٢].

قَالَ العَلَّامَةُ نَاصِرُ الدِّينِ البَيْضَاوِيُّ (ت٦٩١هـ) فِي شَرْحِهِ: «المُرادُ بالوَحْيِ: القُرْآنُ البَالِغُ أَقْصَى غَايَةِ الإِعْجَازِ فِي النَّظْمِ وَالمَعْنَى، وَهُوَ أَكْثَرُ فائِدَةً وأَعَمُّ مَنْفَعَةً مِنْ سَائِرِ المُعْجِزَاتِ؛ فَإِنَّهُ يَشْتَمِلُ على الدَّعْوَى وَالحُجَّةِ، وَيَسْتَمِرُّ عَلَى مَرِّ الدُّهُورِ وَالأَعْصَارِ، يَنْتَفِعُ بِهِ الحَاضِرُونَ عِنْدَ الوَحْيِ المُشَاهِدُونَ لَهُ، وَالغَائِبُونَ عَنْهُ، وَالمَوْجُودُونَ بَعْدَهُ إِلَى يَوْمِ

---

(٢) البخاري (٤٩٨١) ومسلم (١٥٢)

القِيَامَةِ عَلَى السَّوَاءِ، وَلِذَلِكَ رَتَّبَ علَيْهِ قولَهُ ﷺ: «**فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ**»[٣].

وَقَدْ عُلِمَ بِالٱسْتِقْرَاءِ أَنَّ كُلَّ نَبِيٍّ إِنَّمَا بُعِثَ بِمَا غَلَبَ عَلَى أَهْلِ عَصْرِهِ، وَالغَالِبُ فِي زَمَنِهِ ﷺ الفَصَاحَةُ، وَالكَفِيلُ بِذَلِكَ القُرْآنُ، قَالَ صَاحِبُ الجَوْهَرَةِ:

وَمُعْجِزَاتُـــهُ كَثِيـــرَةٌ غُـــرَرْ مِنْهَا كَـلَامُ ٱللَّـهِ مُعْجِـزُ البَشَـرْ

قَالَ مُؤَلِّفُهَا العَلَّامَةُ إِبْرَاهِيمُ اللَّقَّانِيُّ (ت١٠٤١هـ) فِي شَرْحِهِ بَعْدَ كَلَامٍ لَهُ مَا نَصُّهُ: «وَقَوْلُهُ: «مُعْجِزُ البَشَرِ» نَعْتٌ مُوَضِّحٌ مُخْرِجٌ لِغَيْرِ القُرْآنِ مِنْ سَائِرِ كُتُبِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِنْ كَانَتْ كَلَامَهُ، وَمُخْرِجٌ لِلْأَحَادِيثِ القُدُسِيَّةِ؛ إِذْ لَا مُعْجِزَ مِنْ كَلَامِ ٱللَّهِ تَعَالَى إِلَّا القُرْآنُ بِالإِجْمَاعِ، فَإِنَّهُ هُوَ ٱلَّذِي صَيَّرَ كُلَّ فَرْدٍ فَرْدٍ مِنَ الإِنْسَانِ عَاجِزًا عَنْ مُعَارَضَتِهِ وَالإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ، بَلْ كُلُّ المَخْلُوقَاتِ كَذَلِكَ بِالإِجْمَاعِ، قَالَ ٱللَّهُ

(٣) تحفة الأبرار، (ص ٣١٦)

تَعَالَى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[الإسراء: ٨٨]، وَالٱقْتِصَارُ فِي الآيَةِ عَلَى الثَّقَلَيْنِ لِأَنَّهُمَا اللَّذَانِ تُتَصَوَّرُ مِنْهُمَا المُعَارَضَةُ، وَإِلَّا فَالمَلَائِكَةُ لَوْ فُرِضَ ذَلِكَ مِنْهُمْ كَانُوا كَذَلِكَ، وَالٱقْتِصَارُ فِي النَّظْمِ عَلَى البَشَرِ لِأَنَّهُمُ ٱلَّذِينَ تَصَدَّوْا لِذَلِكَ بِالفِعْلِ»(٤).

قَال الحَافِظُ السُّيُوطِيُّ (ت٩١١هـ) فِي إِتْقَانِهِ مَا نصُّهُ: «قَالَ بَعْضُهُمْ: التَّحَدِّي إِنَّمَا وَقَعَ لِلإِنْسِ دُونَ الجِنِّ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ اللِّسَانِ العَرَبِيِّ الَّذِي جَاءَ القُرْآنُ عَلَى أَسَالِيبِهِ، وَإِنَّمَا ذُكِرُوا فِي قَوْلِهِ: ﴿لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾ [الإسراء: ٨٨] تَعْظِيمًا لِإِعْجَازِهِ؛ لِأَنَّ لِلْهَيْئَةِ الٱجْتِمَاعِيَّةِ مِنَ القُوَّةِ مَا لَيْسَ لِلأَفْرَادِ، فَإِذَا فُرِضَ ٱجْتِمَاعُ الثَّقَلَيْنِ فِيهِ وَظَاهَرَ

---

(٤) هداية المريد لجوهرة التوحيد (ج٢/ص٨٤٧)

بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَعَجَزُوا عَنِ المُعَارَضَةِ كَانَ الفَرِيقُ الوَاحِدُ أَعْجَزَ.

وَقَالَ غَيْرُهُ: بَلْ وَقَعَ لِلْجِنِّ أَيْضًا، وَالمَلَائِكَةُ مَنْوِيُّونَ فِي الآيَةِ لِأَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ أَيْضًا عَلَى الإِتْيَانِ بِمِثْلِ القُرْآنِ.

قَالَ الكِرْمَانِيُّ فِي غَرَائِبِ التَّفْسِيرِ: إِنَّمَا ٱقْتُصِرَ فِي الآيَةِ عَلَى ذِكْرِ الإِنْسِ وَالجِنِّ لِأَنَّهُ ﷺ كَانَ مَبْعُوثًا إِلَى الثَّقَلَيْنِ دُونَ المَلَائِكَةِ[٥].

وَٱعْلَمُوا ـ رَحِمَكُمُ اللهُ ـ أَنَّ النَّاسَ مُجْمِعُونَ عَلَى إِعْجَازِ القُرْآنِ، قَالَ الإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ السَّنُوسِيُّ (ت٨٧٥هـ): «لَا خَفَاءَ أَنَّ القُرْآنَ مُعْجِزَةٌ لَهُ ﷺ لِأَنَّهُ تَحَدَّى بِهِ، وَدَعَا إِلَى الإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ فَعَجَزُوا، ثُمَّ تَحَدَّاهُمْ بِالإِتْيَانِ بِعَشْرِ سُوَرٍ فَعَجَزُوا، ثُمَّ تَحَدَّاهُمْ بِالإِتْيَانِ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ فَعَجَزُوا، ثُمَّ نَادَى بِذَلِكَ عَلَى جَمِيعِ البُلَغَاءِ وَالفُصَحَاءِ مِنَ العَرَبِ العَرْبَاءِ، مَعَ

---

(٥) الإتقانُ في علوم القرآن (ج٤/ص٢٢ ـ ٢٣)

كَثْرَتِهِمْ كَثْرَةَ رِمَالِ الدَّهْنَاءِ[٦] وَحَصَى البَطْحَاءِ، وَشُهْرَتِهِمْ بِأَنَّهُمْ فُرْسَانُ الفَصَاحَةِ وَشُجْعَانُ البَلَاغَةِ، وَإِفْرَاطِهِمْ فِي العَصَبِيَّةِ وَحَمِيَّةِ الجَاهِلِيَّةِ، وَتَهَالُكِهِمْ عَلَى الإِعْجَابِ بِذَلِكَ غَايَةَ الإِعْجَابِ، فَعَجَزُوا حَتَّى إِنَّهُمْ آثَرُوا مُقَارَعَةَ السُّيُوفِ عَلَى مُعَارَضَةِ الأَلْفَاظِ وَالحُرُوفِ، فَلَوْ قَدَرُوا عَلَى المُعَارَضَةِ لَعَارَضُوا، وَلَوْ عَارَضُوا لَنُقِلَ إِلَيْنَا بِالتَّوَاتُرِ؛ لِتَوَفُّرِ الدَّوَاعِي عَلَى نَقْلِهِ كَذَلِكَ، مَعَ عَدَمِ الصَّارِفِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ العِلْمَ بِذَلِكَ قَطْعِيٌّ كَسَائِرِ العَادِيَّاتِ، وَلَا يَقْدَحُ فِيهِ ٱحْتِمَالُ أَنَّهُمْ تَرَكُوا المُعَارَضَةَ مَعَ القُدْرَةِ عَلَيْهَا، أَوْ أَنَّهُمْ عَارَضُوا وَلَمْ يُنْقَلْ إِلَيْنَا لِمَانِعٍ أَوْ لِعَدَمِ المُبَالَاةِ وَقِلَّةِ الٱلْتِفَاتِ، أَوْ لِلٱشْتِغَالِ بِالمُهِمَّاتِ[٧].

قَالَ الحَافِظُ السُّيُوطِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي إِتْقَانِهِ: «ٱعْلَمْ أَنَّ المُعْجِزَةَ أَمْرٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ مقرون بالتحدي سالِم عن

(٦) الدهناء: الفلاةُ الرملية الواسعة.

(٧) راجع شرح العقيدة الوسطى (ص٤٦٤ ـ ٤٦٥)

الْمُعَارَضَةِ، وَهِيَ إِمَّا حِسِّيَّةٌ وَإِمَّا عَقْلِيَّةٌ، وَأَكْثَرُ مُعْجِزَاتِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ حِسِّيَّةً لِبَلَادَتِهِمْ وَقِلَّةِ بَصِيرَتِهِمْ، وَأَكْثَرُ مُعْجِزَاتِ هَذِهِ الأُمَّةِ عَقْلِيَّةٌ لِفَرْطِ ذَكَائِهِمْ وَكَمَالِ أَفْهَامِهِمْ، وَلِأَنَّ هَذِهِ الشَّرِيعَةَ لَمَّا كَانَتْ بَاقِيَةً عَلَى صَفَحَاتِ الدَّهْرِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ خُصَّتْ بِالمُعْجِزَةِ العَقْلِيَّةِ البَاقِيَةِ لِيَرَاهَا ذَوُو البصائر، فإِنَّ مُعْجِزَاتِ الأَنْبِيَاءِ عليهم الصلاةُ والسلامُ ٱنْقَرَضَتْ بِٱنْقِرَاضِ أَعْصَارِهِمْ فَلَمْ يُشَاهِدْهَا إِلَّا مَنْ حَضَرَهَا، وَمُعْجِزَةُ الْقُرْآنِ مُسْتَمِرَّةٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وإِنَّ المُعْجِزَاتِ المَاضِيَةَ كَانَتْ حِسِّيَّةً تُشَاهَدُ بِالأَبْصَارِ كَنَاقَةِ صَالِحٍ وَعَصَا مُوسَى، وَمُعْجِزَةُ الْقُرْآنِ تُشَاهَدُ بِالبَصِيرَةِ فَيَكُونُ مَنْ يَتْبَعُهُ لِأَجْلِهَا أَكْثَرَ؛ لِأَنَّ الَّذِي يُشَاهَدُ بِعَيْنِ الرَّأْسِ يَنْقَرِضُ بِانْقِرَاضِ مُشَاهِدِهِ، وَالَّذِي يُشَاهَدُ بِعَيْنِ الْعَقْلِ بَاقٍ يُشَاهِدُهُ كُلُّ مَنْ جَاءَ بَعْدَ الأَوَّلِ مُسْتَمِرًّا(٨).

---

(٨) الإتقان في علوم القرآن (ج٤ /ص٣)

قَالَ الحَافِظُ عَلَمُ الدِّين السَّخاويُّ المالكيُّ (ت٦٤٣هـ) في جمالِه: لَا شَكَّ وَلَا رَيْبَ فِي عَجْزِ البُلَغَاءِ وَقُصُورِ الفُصَحَاءِ عَنْ مُعَارَضَةِ القُرْآنِ العَظِيمِ، وَعَنِ الإِتْيَانِ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ فِي حَدِيثِ الزَّمَانِ وَالقَدِيمِ، وَذَلِكَ ظَاهِرٌ مَكْشُوفٌ، وَمُتيَقَّنٌ مَعْرُوفٌ، لَا سِيَّمَا القَوْمُ الَّذِينَ تَحَدَّاهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ ﷺ فَإِنَّهُمْ كَانُوا ذَوِي حِرْصٍ عَلَى تَكْذِيبِهِ وَالرَّدِّ عَلَيْهِ، وَحَالُهُمْ مَعَهُ مَعْرُوفَةٌ فِي مُعَادَاتِهِ وَمُعَانَدَتِهِ، وَإِظْهَارِ بُغْضِهِ وَأَذَاهُ، وَقَذْفِهِ بِالجُنُونِ وَالشِّعْرِ وَالسِّحْرِ، فَكَيْفَ يَتْرُكُ مَنْ هَذِهِ حَالُهُ مُعَارَضَتَهُ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَيْهَا؟! وَمُمَاثَلَتَهُ وَهُوَ وَاصِلٌ إِلَيْهَا؟!

هَذَا وَهُوَ يُنَادِي عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[الإسراء: ٨٨]، مَعَ مَا فِيهِ مِنْ سَبِّهِمْ وَسَبِّ آبَائِهِمْ، وَوَصْفِهِمْ بِالجَهْلِ وَالعَجْزِ، وَإِيعَادِهِمْ بِالعَذَابِ

وَالنَّكَالِ وَسُوءِ المُنْقَلَبِ، وَرَمْيِهِمْ بِالكَذِبِ وَالْافْتِرَاءِ، وَتَقْبِيحِ الأَفْعَالِ وَتَهْجِينِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الأَحْكَامِ الفَاسِدَةِ، وَإِطَالَةِ القَوْلِ فِي ذَلِكَ وَفِي شَرْحِ أَحْوَالِهِمْ وَٱسْتِقْبَاحِ أَعْمَالِهِمْ وَمَا أُعِدَّ لَهُمْ مِنَ الهَوَانِ وَالنَّكَالِ فِي الدُّنْيَا وَالمَآلِ، أَلَيْسَ هَذَا وَشِبْهُهُ مِمَّا يَحْمِلُهُمْ عَلَى المُعَارَضَةِ لَوْ كَانُوا قَادِرِينَ عَلَيْهَا؟! وَمِمَّا يَجْذِبُهُمْ إِلَى المُنَاظَرَةِ لَوْ وَجَدُوا سَبِيلًا إِلَيْهَا؟!

وَحَالُهُمْ فِي الجِدَالِ مَعْلُومَةٌ، وَأُمُورُهُمْ فِي تَفَاخُرِهِمْ وَطَلَبِهِمُ التَّرَفُّعَ مَفْهُومَةٌ، وَقَدْ كَانُوا يَجْعَلُونَ أَمْوَالَهُمْ دُونَ أَعْرَاضِهِمْ، وَيَهُونُ عَلَيْهِمْ كُلُّ مُسْتَصْعَبٍ فِي بُلُوغِ أَغْرَاضِهِمْ، فَإِذَا هَجَاهُمْ شَاعِرٌ جَدُّوا فِي مُعَارَضَتِهِ وَإِجَابَتِهِ، وَٱسْتَعَانُوا عَلَى ذَلِكَ بِمَنْ يُحْسِنُهُ وَيَظْهَرُ عَلَيْهِ فِي مُقَاوَلَتِهِ وَمُحَاوَرَتِهِ.

فَلَا رَيْبَ إِذًا فِي أَنَّهُمْ رَامُوا ذَلِكَ فَمَا أَطَاقُوهُ، وَحَاوَلُوهُ فَمَا ٱسْتَطَاعُوهُ، وَأَنَّهُمْ رَأَوْا نَظْماً عَجِيبًا خَارِجًا عَنْ أَسَالِيبِ كَلَامِهِمْ، وَرَصْفًا بَدِيعًا مُبَايِنًا لِقَوَانِينِ بَلَاغَتِهِمْ وَنِظَامِهِمْ، فَأَيْقَنُوا بِالقُصُورِ عَنْ مُعَارَضَتِهِ، وَٱسْتَشْعَرُوا العَجْزَ عَنْ

مُقَابَلَتِهِ، **وَهَذَا هُوَ الوَجْهُ فِي إِعْجَازِ القُرْآنِ**، كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ: «القُرْآنُ لَا يُدْرِكُهُ عَقْلٌ، وَلَا يَقْصُرُ عَنْهُ فَهْمٌ».

وَأَمَّا مَا تَضَمَّنَهُ القُرْآنُ العَزِيزُ مِنَ الإِخْبَارِ عَنِ المُغَيَّبِ فَلَيْسَ ذَلِكَ مِمَّا تَحَدَّاهُمْ بِهِ، وَلَكِنَّهُ دَلِيلٌ عَلَى صِدْقِ الرَّسُولِ ﷺ، وَأَنَّهُ كَلَامُ عَلَّامِ الغُيُوبِ، وَكَذَلِكَ أَيْضًا دَلَالَةُ حَالِ الرَّسُولِ ﷺ فِي كَوْنِهِ أُمِّيًّا لَا مَعْرِفَةَ لَهُ وَلَا يُحْسِنُ أَنْ يَقْرَأَ، وَلَا وَقَفَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَخْبَارِ الأُمَمِ السَّالِفَةِ، حَتَّى إِنَّهُ لَا يَقُولُ الشِّعْرَ وَلَا يَنْظُرُ فِي الكُتُبِ، ثُمَّ إِنَّهُ قَدْ أَتَى بِأَخْبَارِ القُرُونِ المَاضِيَةِ وَالأُمَمِ الخَالِيَةِ، وَبِمَا كَانَ مِنْ أَوَّلِ خَلْقِ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ إِلَى ٱنْقِضَاءِ الدُّنْيَا، وَهُمْ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ مِنْ حَالِهِ، وَلَا يَشُكُّونَ فِيهِ.

فَهَذِهِ الحَالُ دَلِيلٌ قَاطِعٌ بِصِدْقِهِ ﷺ، وَلَكِنَّ إِعْجَازَ القُرْآنِ مِنْ قِبَلِ أَنَّهُ خَارِجٌ فِي بَدِيعِ نَظْمِهِ وَغَرَابَةِ أَسَالِيبِهِ عَنْ مَعْهُودِ كَلَامِ البَشَرِ، مُخْتَصٌّ بِنَمَطٍ غَرِيبٍ لَا يُشْبِهُ شَيْئاً مِنَ القَوْلِ فِي الرَّصْفِ وَالتَّرْتِيبِ، لَا هُوَ مِنْ قَبِيلِ الشِّعْرِ، وَلَا

مِنْ ضُرُوبِ الخُطَبِ وَالسَّجْعِ، يَعْلَمُ مَنْ تَأَمَّلَهُ أَنَّهُ خَارِجٌ عَنِ المَأْلُوفِ، مُبَايِنٌ لِلْمَعْرُوفِ، مُتَنَاسِبٌ فِي البَلَاغَةِ، مُتَشَابِهٌ فِي البَرَاعَةِ، بَرِيءٌ مِنَ التَّكَلُّفِ، مُنَزَّهٌ عَنِ التَّصَنُّعِ وَالتَّعَسُّفِ، وَكَلَامُ البَشَرِ وَإِنْ كَانَ مِنْ فَصِيحٍ بَلِيغٍ يَظْهَرُ فِيهِ إِذَا طَالَ تَفَاوُتٌ وَٱخْتِلَافٌ وَإِخْلَالٌ، وَالقُرْآنُ العَزِيزُ عَلَى ذَوْقٍ وَاحِدٍ إِنْ بَشَّرَ أَوْ أَنْذَرَ، أَوْ وَعَظَ وَحَذَّرَ، أَوْ قَصَّ وَأَخْبَرَ، أَوْ نَهَى أَوْ أَمَرَ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِرُؤَسَاءِ الكَلَامِ وَفُحُولِ النِّظَامِ، فَقَدْ يُجِيدُ بَعْضُهُمُ المَدْحَ وَيُقَصِّرُ فِي ضِدِّهِ، وَفِي وَصْفِ الخَيْلِ وَسَيْرِ اللَّيْلِ دُونَ وَصْفِ الحَرْبِ وَالجُودِ وَالمَطَرِ وَالسَّيْلِ، وَالقُرْآنُ العَزِيزُ كُلُّهُ وَإِنْ أَطَالَ فِي هَذِهِ المَعَانِي ٱلَّتِي ذَكَرْتُهَا أَوْ أَوْجَزَ عَلَى قَرِيٍّ وَاحِدٍ[٩] لَا تَعْثُرُ فِيهِ عَلَى ٱخْتِلَافٍ، وَلَا أَنْتَ لِتَقْصِيرٍ بِوَاجِدٍ، فَلَا يَشُكُّ فِي صِحَّةِ نُزُولِهِ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ

---

(٩) أي: على طريق واحِدٍ.

عَزَّوَجَلَّ ذُو بَصِيرَةٍ، وَلَا قُدْرَةَ لِأَحَدٍ مِنَ البَشَرِ عَلَى أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ فِي إِحْكَامِ مَعَانِيهِ، وَٱنْتِظَامِ أَلْفَاظِهِ، وَبَدِيعِ مِناهِجِهِ.

وَلَقَدْ عَجَزَتِ العَرَبُ مَعَ قُدْرَتِهَا عَلَى التَّصَرُّفِ فِي الكَلَامِ وَالفَصَاحَةِ وَفُرُوعِ البَلَاغَةِ عَنْ مُعَارَضَتِهِ بِسُورةٍ، وَمِنَ السُّوَرِ مَا يَقِلُّ عَدَدُهُ، وَقَدْ أَعْلَمَهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، فَنَطَقَ لِسَانُ الحَالِ بِعَجْزِهِمْ، وَوُقُوعِ إِيَاسِهِمْ مِنَ الوُصُولِ إِلَى شَيْءٍ مِنْهُ، وَٱنْحَرَفُوا إِلَى القِتَالِ وَبَذْلِ الأَمْوَالِ فِي المُعَانَدَةِ.

فَالقُرْآن إِذًا لِهَذَا السَّبَبِ أَعْظَمُ آيَاتِهِ ﷺ وَأَوْضَحُ الأَدِلَّةِ عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ ٱللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[البقرة: ٢]، أَيْ: لَا يَرْتَابُ فِيهِ ذُو لُبٍّ(١٠).

قَالَ الإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ السَّنُوسِيُّ (ت٨٧٥هـ): «هَذَا، مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الإِخْبَارِ ـ قَبْلَ الوُقُوعِ ـ بِالغُيُوبِ المُطَابِقَةِ، وَمَحَاسِنِ عُلُومِ الشَّرِيعَةِ المُشْتَمِلَةِ عَلَى مَا لَا يَقْدِرُ البَشَرُ

---

(١٠) جمال القراء وكمال الإقراء (ص٨١ ـ ٨٤)

عَلَى ضَبْطِهِ: مِنَ الـمَصَالِحِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالأُخْرَوِيَّةِ، وَتَحْرِيرِ الأَدِلَّةِ، وَالرَّدِّ عَلَى الـمُخَالِفِينَ بِالبَرَاهِينِ القَطْعِيَّةِ، وَسَرْدِ قَصَصِ الـمَاضِينَ، وَتَزْكِيَةِ النَّفْسِ بِمَوَاعِظَ يَغْرَقُ فِي أَدْنَى بِحَارِهَا جَمِيعُ وَعْظِ الوَاعِظِينَ.

هَذَا كُلُّهُ عَلَى يَدِ نَبِيٍّ أُمِّيٍّ، لَمْ يَلْحَظْ قَطُّ كِتَابًا، وَلَا حَصَلَتْ لَهُ مُخَالَطَةٌ لِذِي عِلْمٍ مَا يُمْكِنُ بِهَا تَحْصِيلُ أَدْنَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، عُلِمَ ذَلِكَ كُلُّهُ بِالضَّرُورَةِ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨] (١١).

(١١) متن العقيدة الكبرى ضمن شرحها (ص٥٨١ ـ ٥٨٢)